# السنوات الأخيرة من حكم سبتموس

حالما كبر ابنا سبتموس وجوليا وبلغا مبلغ الرجال بدا هنالك فرق واضح في شخصيتهما، حيث ورث الابن الأكبر انطونيوس سحر والدته ولكن ليس جمالها، فقد كان لونه حنطياً (كلون أهالي قرطاجة) وكان شاحب اللون حاد التقاطيع وكان المراقبون الأعداء يصفونه بالبشاعة، ولكنه عوض عن هذه البشاعة بدماثة أخلاقه وروحه المعنوية العالية لاسيما عندما كان يتوق لخلق انطباع جيد عن نفسه، ففي أثناء نعومة أظفاره كان قادراً على إظهار غضبه ورفضه للظلم وحبه للكرم ويظهر ذلك عبر قصة رويت عنه وهو في السابعة من العمر؛ فقد سمع أن أحد رفاقه في اللعب قد ضربه والده (أي والد الطفل الصديق) لتأخره في العودة للمنزل، فركض انطونيوس إلى والده الإمبراطور طالباً معاقبة أب الولد المضروب وصرفه من الخدمة في البلاط الإمبراطوري وإن اهتمامه بصديقه يشهد على ولائه الذي لم تظهر إلا آثار طفيفة منه في تاريخه في المستقبل، فَطَلَبُ العقاب لوالد صديقه الطفل يضرب على وتر حساس بالنسبة لولي العهد الإمبراطوري.

أما الأخ الأصغر جيتا Geta فقد كان خجولاً وغالباً ما كان فظاً جافاً يتكلم بتلعثم طفيف. وكان يشبه والده في نظراته، فكان قوي البنية ذا حاجبين عريضين وأنف أفطس. ومع أن كلا الولدين كانا ذكيين أثناء تعليمهما وسريعي الحفظ، إلا أن انطونيوس كان يكره التعلم والعلم. أما جيتا فكان يشبه أمه في حبها للعمل والمعرفة وفي حماسها للاستكشاف والكشف عن الحقائق. وقد جمع ذوقه وحبه للعلم مع شهيته العظيمة للطعام والملابس الزاهية الألوان، مع حبه للفتيات الجميلات بعد أن كبر قليلاً.

وكان جيتا الطفل المحبوب المدلل لدى أمه. وقد قيل أن إفكاره كانت تدل على تأثير الديانة المسيحية فيه، ولكن ليس هنالك أي دليل على ذلك إذ لم يكن هو الذي أرضعته مرضعة مسيحية بل كان أخوه، لو كان هنالك أي طفل يمكن أن يتشرب الديانة مع الحليب. ومع ذلك فقد كان هنالك كثير من الأطفال المسيحيين في البلاط مرافقين لكلا الولدين فقد درست جوليا التعاليم المسيحية باهتمام خاص وحقيقي. وأظهر سبتموس بناء على شهادة الكاتب المسيحي تيرتوليان Tertullian النية الحسنة ومعاملته الخاصة لهم، وسمح لهم بالقباء في وظائفهم في الوقت الذي

كان فيه حكام الولايات يضطهدونهم. وعندما أصبح انطونيوس إمبراطوراً ترك المسيحية في أمان وكان أقرب في روحه إليها وقد حدث في مناسبة حضر بها الأميران مجلساً عسكرياً لتقرير فيما إذا كان يجب إعدام الأسرى فقال جيتا: «هل تريدون أن يحزن الناس ونسبب كآبتهم في وقت انتصارنا»؟ أما أنطونيوس فقد كان يميل إلى قتل الجميع وحتى الأطفال منهم.

وكان هنالك اختلاف في مزاجي الطفلين بسبب المشاجرات المستمرة بينهما، وقد كانا يتقاتلان بعنف وهما صغيران، واستمرت تلك المنافسة بعد أن كبرا في السن فكان الواحد منهما يكره كل ما يحبه الآخر وكانت نتيجة هذا الخصام انقساماً في المجتمع الروماني.

كان الإمبراطور يأسف لهذا النزاع ويدينه لأنه رأى فيه خطراً على بقاء الأسرة التي أسسها وكانت جميع محاولاته لمصالحة ولديه تجري عبثاً، وكذلك محاولات جوليا، كان أنطونيوس يغار من كون جيتا هو الطفل المدلل المحبوب لدى والدته.

اختار سبتموس أمين سره ليكون أستاذاً لولديه وذلك لشدة شوقه لتعليم ولديه بشكل جيد وكان اسم هذا المعلم انتيباتر Antipater وهو من الفلاسفة الرواقيين، وكان هذا الرجل عالماً أكثر منه متفهماً وعندما أنهى واجباته التعليمية عينه الإمبراطور حاكماً على بيثينيا Bithhhynia ولكن سرعان ما صرف من الخدمة بسبب سوء تصرفه وفقدانه الشعبية، فقد كان يعتمد على سيوف جنوده المشرعة ليغطي على معايبه وعلى عدم قدرته على الحكم.

كان عناده وتكبره سبباً في جلب المصائب في حياته الخاصة فضلاً عن حياته العامة. فقد كان يفتش عن زوج لابنته فوجد شاباً رواقياً يدعى هيرموكرابيس Hermocrates ذا نظرات ساحرة وصوت جميل يبشر بمستقبل جيد. ولكنه رفض هذا الشرف ولم تستطع الفتاة أن تأسره أو تستجلب انتباهه ولم يكن الأمل بأن يصبح صهراً لأمين سر الإمبراطور، كافياً لجذبه نحو تعابير وجهها الكئيبة إلا أن رفضه أغضب انتيباتر Antipater عليه الذي اعتبر هذا الرفض جرحاً لكرامته وهدد بالشكوى للإمبراطور، عندها اضطر الشاب للخضوع للأمر الواقع إنقاذاً لنفسه من غضب الإمبراطور. ويضيف ميلوتسراتوس المؤرخ الذي يخبرنا هذه القصة أنه بعد حفلة الزفاف وإزاحة القناع عن وجه الفتاة العروس كالعادة، تمتم العريس أمام الناس قائلاً: «إن هذا الوجه يحتاج أقنعة أخرى لإخفائه ولا يحتاج لإزاحة الأقنعة عنه».

ولكن العريس عوض عن خيبته باعتياده شرب الخمر، مما أرهق صحته وأمواله وانتهى ذلك الزواج بالطلاق الذي تبعه موته المبكر.

وسواء أثر نفوذ هذا الأستاذ في انطونيوس أم لا فإننا نرى أن هذا الأخير اكتسب بعض صفاته، فقد تغيرت أخلاقه إلى الأسوأ بعد أن بلغ سن المراهقة. فقد كان جميع من حوله يعاملونه كأنه معبود مما أفسد طباعه فلم يعد يهتم بإرضاء

الآخرين ما دامت عربدته وصخبه تجلب له ما يريد وكان يرغي ويزبد غضباً، ليس إنصافاً لظلم وقع على الآخرين بل بسبب الصعوبات والعقبات التي تحول دون تنفيذ إرادته ورغباته الخاصة. كان يشترك مع والده في احترام وتمجيد اسم الاسكندر المكدوني ولكنه زاد عن ذلك بأن اعتبر نفسه متقمصاً روح الاسكندر وأصبح يميل لتقليده في سلوكه وكأنه هو.

وبعد وصوله إلى روما من أنطاكية حدث حادث كان له أثر سيئ في شخصيته. فقد كان هناك رجل ذو نفوذ على الإمبراطور يدعى فولفيوس بلوتينوس Fulvius Plautinus وهو رئيس الحرس البريتوري وصديق الإمبراطور القديم الذي أوكلت إليه مهمة إلقاء القبض على زوجة نيجر وأطفاله أثناء الحرب الأهلية وكانت تربطه مع الإمبراطور أواصر الصداقة والذكريات القديمة في ليبتس Leptis وكان ذا ثروة عظيمة لا تقل عن نفوذه العظيم وكان يلفت الأنظار إليه بالدهشة والرهبة التي يلقيها في قلوب المواطنين بما يملكه من مقتنيات وبالأسلوب الفخم الذي يعيش به، بما فيه وجود قطيع من حمر الوحش كان قد سرقه من إحدى جزر الهند. وقد أقنع هذا الرجل الإمبراطور أن ابنته بلوتيلا Plautila ستكون زوجة مناسبة لانكونيوس، وقد جرت حفلة الزفاف بأبهة وإسراف زائد حتى عن المستوى الروماني في الإسراف. وقد صرح أحد الضيوف الذين حضروا حفلة الزفاف أن ثوب العروس كان يكفي لصنع ملابس ولتزيين خمسين فتاة من الطبقة الملكية.

وكانت الوصمة الوحيدة لتلك الولائم والأفراح التذمر وعدم الرضا الذي أظهره العريس أنطونيوس فلم يستشره أحد في زواجه ذلك، والفتاة لم تكن جميلة (ولا تزيد جمالاً عن ابنة معلمه) وكان في الرابعة عشرة من العمر. وأما هي فكانت أكبر منه سناً وقد تقرر أن يعيش الزوجان مع بعضهما دون تأخير ولكنه رفض تنفيذ الزواج بعناد في حينه أو بعد ذلك. وتجاهل زوجته وأهانها ولم يستطع تحمل طلعتها وهي على مائدة الطعام، وكانت والدته تشاطره كرهه لزوجته وكانت هي أيضاً تكره والدها بلوتينوس وتحسده على حظوته لدى الإمبراطور، وقد كان يدعى هزءاً وسخرية بالقيصر الرابع، ولم يكن الإمبراطور يهتم بشكواها ضده إذ كان يعتبر أن بلوتونيوس لا يمكن أن يقترف أي ذنب أو يقع في أي خطأ وقد كتب في إحدى رسائله يقول: «إنني أحب هذا الرجل لدرجة أني أتمنى الموت قبله».

ويذكر ديو عدة قصص يصور بها رفعة القدر التي تمتع بها بلوتينيوس Plautianus فكان يحجز أفضل البيوت له عندما يسافر في صحبة الإمبراطور إلى أي بلد كان، ولم تكن تمضي أي مناسبة لا يصطحب بها الإمبراطور سمك البوري الذي كان صديقه مولعاً به، كما أن الإمبراطور كان يرجوه أحياناً إرسال سمك البوري له من مائدته. وهنالك تفسير لهذا السلوك وهو أن سبتموس الذي كان رجلاً ذا ذوق بسيط لم يكن يبدي اهتماماً كافياً بالمنافسة مع رجله الأثير في هواياته. وهنالك قصة أخرى تقول إن سبتموس كان يملك حس النكتة والمزاح،

فقد كان الإمبراطور جالساً في مجلس القضاء لفض القضايا في المحكمة، وبعد أن أنهى القضايا بوقت أسرع من المعتاد، طلب من الحاجب إضافة قضية جديدة إلى القائمة فأجاب الحاجب: لا يمكنني فعل ذلك دون أخذ إذن من بلوتينيوس Plautianus ولكن الإمبراطور اعتبر هذا الكلام من قبيل النكتة مما أدخل الارتياح إلى قلب صديقه عندما علم بالخبر.

كان من الواضح للجميع أن بلوتينيوس كانت له حظوة ليس لها مثيل في ثقة الإمبراطور وحبه، وكان واثقاً من سلطته وإنه عندما كانت جوليا تعارضه لم يتردد في مهاجمتها واتهامها بعدم العفة والطهارة، وكانت سمعتها عرضة للتجريح بسبب أصلها السوري[1] والتصاقها منذ فجر شبابها بالبساتين والأماكن العالية التي يقدسها دينها، والحرية الإباحية التي كانت تحدث هناك أثناء الأعياد والاحتفالات. ومع أن صيته وشهرته الأخلاقية السيئة كانت معروفة للجميع من تردده على المواخير وعلى مجتمع الساقطات والزانيات، إلا أنه كان يطلب من النساء حوله مستوى أخلاقياً رفيعاً، وكان يباهي بالشدة والصرامة التي كان يعامل بها زوجته وابنته ويباهي بطهارة هاتين المرأتين اللتين حرمهما من الاختلاط بالمجتمع إلا بإشرافه. ثم زاد عن ذلك بإصراره على خصي جميع الشباب الذكور الذين يعملون في خدمة النساء في مخادعهن. وكان هذا الأمر يشمل أساتذة الموسيقى والفنون الذين كانوا يأتون لتعليم ابنته وكان منهم رجال كبار في السن لهم زوجات وأطفال.

أخذ هذا الرجل في التفتيش عن معايب جوليا، فأحضر جماعة من النسوة اللواتي كن في خدمة جوليا وأخذ في استجوابهن وتهديدهن ليذكرن له شيئاً عن جوليا. ولم تفد احتجاجات جوليا لدى الإمبراطور، بل بالعكس أخذ هذا يشك بسلوك زوجته بناء على نصيحة رجله الأثير هذا. ومع ذلك على الرغم من جميع الرشاوى والتهديد باستعمال القوة لم يستطع استخلاص أي أمر مشين بحق جوليا من الشهود أكثر من حادثة جرت وهي أن جوليا سمحت بتنظيم مباراة بالجمباز اشتركت بها فتيات عاريات حسب التقاليد الإسبارطية، ولهذا أصدر سبتموس مرسوماً بمنع تكرار مثل هذه المباريات. وهكذا يئست جوليا وبحثت عن التعزية والسلوى بمصاحبة أصدقائها الأدباء والفلاسفة.

ولكن أتت صدفة مكنتها من الانتقام عندما سافرت مع سبتموس في زيارة لإفريقية، فقد أصبح سبتموس يميل للمصالحة مع زوجته بعد أن تبين أن إدعاءات أثيره ما هي إلا زوبعة في فنجان وانتبه سبتموس لتلك الإشارة التي لمحت بها جوليا عن وجود تماثيل لبلوتينوس Plautianus تفوق في عددها تماثيل الإمبراطور نفسه في مدينة ليبتس Leptis مسقط رأس الإمبراطور، وقد تفاقم الوضع عندما

---

١- كل امرأة سورية أو عربية بالمعنى الواسع للعروبة كانت تحظى بشهرة واسعة أو مركز اجتماعي عال كانت معرضة للطعن بسمعتها من قبل الرومان فهذه جوليا دومنا ومن بعدها زنوبيا وكذلك تيودورا.

رأى سبتموس أن عدة صور وتماثيل كانت تمثل أثيره وهو يختلط بالأسرة الإمبراطورية كأنه حقاً القيصر الرابع الذي تبنته الأسرة. وهكذا بدأ الغضب يتسرب لقلب سبتموس ويستولي عليه فقد كان هو ابن ليبتس Liptis العزيز ولم يرغب في أن يقاسمه هذا الشرف أحد من الناس، وفضلاً عن ذلك فقد كان يتوق لتربية أسرة من صلبه وأخذ يتصور ويتنبأ بالمشكلات التي سوف تحدث إذا دخلت أي فكرة من أفكار التبني في عقل ذلك الأثير. وفي مقابلة عاصفة مع بلوتينوس الذي كان حاضراً في الرحلة أمر سبتموس بإزالة جميع تماثيل هذا الرجل وإذابتها وصهرها.

وبعد ذلك وكعادته بدأ يستعيد صداقته ونسي الموضوع إذ كان لديه خطط طموحة وراء رحلته وهي إنشاء إدارة منفصلة في نوميديا Numidia وهي الجزء الغربي من تلك الولاية وأن يمد الحدود الجنوبية إلى حدود الصحراء، وكان بلوتينوس إفريقياً أيضاً وله إطلاع على الأوضاع هناك لذلك بدأا بالعمل معاً وعادت الأمور إلى طبيعتها.

وفي أثناء ذلك انتقلت قصة نزع تماثيل بلوتينوس إلى سردينيا، حيث سمع الحاكم أن بلوتينوس قد عزل ولذلك فقد أزال جميع تماثيله وكل ما يحمل اسمه. وعند سماع سبتموس بهذا الخبر انتابه العجب والغضب معاً. فاستدعى ذلك الحاكم المتسرع وأحاله إلى المحاكمة وقد ارتأى بلوتينوس أن يعاقب هذا الحاكم عقاباً صارماً. وأما أولئك الذين فرحوا بحادث ليبتس وكسر تماثيل بلوتينوس فقد عادوا إلى صوابهم عندما رأوا أن هذا قد رجع إلى سابق حظوته واستأنفوا في إبداء آيات الاحترام والتبجيل له.

بقيت جوليا غاضبة. لذلك قادها كرهها لبلوتينوس إلى التحالف مع ابنها الأكبر الذي استطاع أن يسامحها لتمييزها لأخيه جيتا بعد أن لمس منها الحنان والعطف بالنسبة لقضية زواجه، وكان عمه أبو زوجته يقوم بإصدار الأوامر له ويتظاهر بحمايته ويتدخل في شؤونه الخاصة ويوبخه بسبب معاملته السيئة لزوجته وإهماله لها، وقد اشترك الوالد والابنة في الحملة ضد الزوج لرفضه وإصراره على عدم الاتصال جنسياً بالزوجة، فلقد كان بلوتينوس حريصاً على أن ينجب صهره ذلك الوريث للإمبراطورية الذي سيكون حفيده والذي سوف يلبس الرداء الأرجواني، ولكن أنطونيوس أصر على موقفه والتجأ إلى والدته للتفريج عن كربه وألمه.

وأخيراً طويت صفحة ذلك الخصام والانقسام ورجع الوئام إلى الأسرة الإمبراطورية ظاهرياً، وذلك في صيف عام 204م وعندما حان موعد الاحتفال بالألعاب القرنية (وهي تنتقل من جيل إلى جيل وفي كل قرن تقام مرة واحدة) وهذه ألعاب أقيمت للاحتفال بنشوء الإمبراطورية الرومانية وكان يرجع في أصله طبقاً لتقاليد الأتروسكيين، وكان يشير إلى الانتقال من الفترة القديمة إلى الفترة الحديثة وهي فترة تقدر بـ (110) سنوات تغطي ذكريات جيلين. وقد حُوفظ على هذه العادة في أيام الجمهورية وأيام الإمبراطورية وكانت أفضل مناسبة يذكرها

الناس لتلك الاحتفالات في زمن أغسطس عندما ألف الشاعر هوراس تلك الأنشودة الاحتفالية التي حيا بها الشاعر الإمبراطورية، وكانت تمثل عصراً جديداً حقاً. ومنذ ذلك العهد كانت تحدث احتفالات مختلفة دون التقيد بالزمن (أي مئة عام) وكان من العادة الاحتفال بتلك الأعياد لتعزيز سلطة الإمبراطور وهيبته ولهذا فقد كان سبتموس حريصاً على إقامة هذه الأعياد فاختار الوقت المناسب لمرور (220) عاماً على التاريخ الذي بدأت به الألعاب زمن أغسطس.

أخذت الاحتفالات الدينية حصة الأسد في البرنامج من مواكب وقرابين وصلوات وجماعات من المرتلين من الأولاد والبنات. وبعد انتهاء المراسم الدينية بدأت الاحتفالات العادية من مجالدة الصيادين للوحوش على الحلبة وسباق العربات، ثم مُثلت معركة هزيمة قام بها الأولاد وأبناء الأسر النبيلة ولم تشترك البنات سواء كانت كاسيات أم عاريات في الألعاب... وقامت جوليا بدورها كزوجة الإمبراطور بمنتهى الوقار، وكانت ترأس جماعة من العقيلات وهن نساء متزوجات ذوات مقام رفيع من الأسرة الإمبراطورية وأخريات من الأسر الممتازة.

وكان بين الحاضرات أختها جوليا ماسيا Masea التي كان زوجها جوليوس افيتوس Julius avitus قد رقي حديثاً إلى رتبة عضو في مجلس الشيوخ وكان على وشك أن يعين والياً لولاية آسيا. ومع أن ماسيا كانت أصغر من أختها جوليا، إلا أنها بقيت في الظل ما دامت أختها حية، ولكن عندما سنحت الفرصة أظهرت شخصية ممتازة ومقدرة بارزة تؤهلها لتؤدي دوراً بارزاً في الحياة العامة ولكنها في الوقت الحاضر اكتفت بالبقاء في الظل في كنف أختها ما دام زوجها يخطو في مدارج الترقي وعطف الإمبراطور. وكانت شديدة العطف على أقاربها ولم تحسد أختها على حيازتها لقب الإمبراطورة. ولكن عند وفاة أختها واحتكار امرأة أخرى لهذا اللقب عمدت ماسيا لإرجاع اللقب لنفسها وإعادة مجد الأسرة.

وكان لها ابنتان سوهيمياس Sohaimias[1] ومامايا Mamaea ولم يظهر أنه كان لها أي ولد ذكر وكانت سهيمة قد تزوجت بشاب سوري طموح يدعى فاريوس مارسيلوس Varius Marcellus وكان يصعد في مدارج الترقي، حيث تمتع بذلك العطف الذي كان يبديه ذلك العهد للسوريين وكانت سهيمة بين العقيلات المتزوجات ذوات المقام الرفيع اللواتي حضرن مع خالتها إلى معبد جوبتر. أما مامايا فكانت صغيرة جداً ولم تتزوج بعد.

امتلأ قلب سبتموس بالغبطة والسرور لنجاح الألعاب التي توجت أعماله العظيمة ورفع إلى لقب أوغسطس الإله. وقد ساهمت أسرته بهذا المجد وظهرت

---

١- تكتب هكذا بالطريقة الرومانية والاسم العربي هو سهيمة.

متماسكة بقدر الإمكان وبدا وكأن خوفه من الانشقاق الأسري قد زال ولكن وقبل نهاية العام تلقى صدمة عنيفة بوفاة أخيه سبتموس جيتا Geta وأصيب الإمبراطور بالأسى لفقدانه أخيه لاسيما عندما سمع بتلك المعلومات التي تفوه بها أخوه وهو على فراش الموت.

يكشف لنا (ديو) الذي روى هذه القصة أن تلك المعلومات كانت حول خطط بلوتينوس Plautianus التي كان (جيتا) يخشى فضحها في زمن سابق، لخوفه من عدم تصديق أخيه لتلك المعلومات، ومن انتقام بلوتينوس منه. على الرغم من أن جيتا قد أدلى بنصيحة لأخيه وهو على فراش الموت إلا أن الإمبراطور لم يصدق شيئاً ضد صديق طفولته وشبابه. فقد عمل على فرض الحدود الصارمة على وظيفة عريف الحرس البريتوري، ولكن عريف الحرس نفسه ظل محتفظاً بوظيفته، ولم تظهر أي إشارة تنبئ عن الحد من نفوذه، ومع ذلك فقد لوحظ أن هنالك تقهقراً في علاقاته مع الإمبراطور وأصبح الناس يعلقون بعض التعليقات حول سلوكه في المناسبات العامة فقد أصبح وجهه لا يخلو من التوهج والعصبية وأصبح ينظر حوله بقلق وكان يرتجف أحياناً إذا أحس بحركة أو صوت غريب.

ليس هنالك من قرينة تؤيد عزمه على عمل مؤامرة للانقلاب ضد الإمبراطور بل بالعكس ظهر أنه ليس لديه أي دافع مقبول. إذ كان يحتل مركزاً في الدولة يقع بعد مركز الإمبراطور مباشرة وكان يعتمد عليه في كل صغيرة وكبيرة وكانت سحب الفرقة تزول حالاً. وكان هنالك وجه آخر للصورة فقد كان سبتموس قد قارب الستين من العمر وساءت صحته منذ إصابته بالجدري، فإن مات فجأة وخلفه انطونيوس فالمستقبل مظلم، فقد كان بلوتينوس يعلم أخلاق صهره حق العلم ويعلم أن ثروته وحياته سوف تكون في خطر إذا ولي أنطونيوس الحكم.

وإذا كان بلوتينوس يشعر بالخطر من المستقبل، فإن ذلك كان مناسباً لجوليا التي عملت على إثارة وتقوية شعوره بالخطر؛ فقد عمدت إلى مصادقة ابنته أي زوجة أنطونيوس ولدها ووضع ثقتها بها علماً منها أن أي كلمة تقولها سوف تنقلها هذه الفتاة لوالدها وبهذه الطريقة استطاعت أن تغذي بلوتينوس بالقصص المشوشة للأفكار وإنذاره بخطر قادم محدق به. وكان لديها أحد الضباط المقربين لبلوتينوس وتحريضه على الخيانة. وكان هذا الرجل يعمل كعميل مزدوج فكان أيضاً يعمل لحساب بلوتينوس في تخطيط مؤامرة ضد سبتموس وأنطونيوس لقتل الإمبراطور وتنصيب بلوتينوس إمبراطوراً واسم هذا العميل ساتورنينوس Saturninus وهو من الحرس البريتوري.

كان ساتورنينوس المشرف على الحرس في القصر الإمبراطوري في ليلة من ليالي الشتاء عندما كان الإمبراطور وابنه في القصر، ولما كان هو الضباط المناوب فقد كان بإمكانه الدخول إلى جميع الغرف. وقد تم الاتفاق بينه وبين

بلوتينوس أن يدخل هذا الضابط إلى حجرة الإمبراطور بحجة تسليمه رسالة مستعجلة، وعندما يصبح وحيداً مع الإمبراطور يقتله ثم يخرج ويفتش عن انطونيوس ويقتله أيضاً وحالما يموت الاثنان يرسل الخبر إلى بلوتينوس لدعوته قبل أن يعلم أي شخص آخر بما حدث. تلك هي الأوامر التي صدرت إلى ساتورنينوس Saturninus وقد نفذها كلها ما عدا قتل الإمبراطور. إذ إنه عند دخوله حجرة الإمبراطور أخبره بالمؤامرة بدلاً من قتله وأكد له براءته وإخلاصه له. ولكن الإمبراطور رفض أولاً تصديق أي شيء ضد بلوتينوس وشك أن يكون أنطونيوس وراء هذه المؤامرة. فاستدعاه وعندما وصل هذا وسمع الخبر أكد شدة عجبه ودهشته وصدمته، وبين له أن أفضل طريقة لفحص القصة أن يرسل ساتورنينوس خبراً لبلوتينوس يعلمه أن المؤامرة قد نجحت حسب الخطة المقررة فإذا كان هذا مذنباً فسوف يفضح نفسه في سرعته لجني ثمرة نجاحه.

أُرسل الرسول. وكان سلوك بلوتينوس وتصرفه منطبقاً على ما توقعه أنطونيوس فقد غادر بيته بسرعة ولبس درعاً حربية على سبيل الاحتياط تحت ثيابه وحضر في عربته إلى القصر، وكانت ليلة ممطرة من ليالي كانون الثاني وكانت الحجارة زلقة بفعل المطر وقد ساق البغال بسرعة وإنها تعثرت عندما دخلت ساحة القصر وسقطت على الأرض.

قابله ساتورنينوس في الصالة وحياه كإمبراطور وعرض عليه أن يريه الجثث الميتة فقاده إلى الطريق وتبعه بلوتينوس وهو في غاية السرور واندفع إلى حجرة الإمبراطور فإذا الإمبراطور واقف أمامه وهو حي لم يمت.

خاطبه سبتموس برفق وبتأنيب وسأله لماذا أراد قتله ولكن بلوتينوس استطاع جمع شتات أفكاره وأنكر التهمة أو أن يكون لديه أي غرض من هذا النوع وذكره بخدماته في الماضي وأصر أن هذه ما هي إلا مكيدة حيكت له على أيدي أعدائه وأنه ضحية مؤامرة ضده وقد أثرت كلماته هذه في سبتموس الذي أصغى له بانتباه. ولكن أنطونيوس أسرع فأمسك به من قميصه ومزق القميص فوق كتفه فظهرت الدرع تحت ثيابه عندها صاح أنطونيوس «لماذا تلبس هذه الدروع، ألزيارة الإمبراطور»؟ ثم ضربه ضربة على وجهه وكاد يقتله لولا تدخل الإمبراطور ثم أسرع ساتورنينوس والخدم الآخرون، وطبقاً لأوامر انطونيوس وبعد موافقة الإمبراطور بتردد سلوا سيوفهم وطعنوا بلوتينوس عدة طعنات أودت بحياته. ثم سحب أنطونيوس بعض الشعر من لحيته وذهب إلى أمه التي لم تكن تعلم أي شيء عما حدث بل كانت تتحدث مع بلوتيلا زوجة ابنها أنطونيوس، فما كان من أنطونيوس إلا أن لوح بتلك الشعرات في وجه زوجته «هذا هو أبوك، انظري ماذا بقي منه»!

رميت جثة بلوتينوس في الشارع العام حتى يرى الجميع أن العريف القوي قد قتل ولكن عند رؤية سبتموس للجثة أمر برفعها ودفنها باحترام. وفي خطابه أمام مجلس الشيوخ في اليوم التالي تجنب الإساءة إلى ذكرى بلوتينوس وقال إن

الذنب ذنبه في وثوقه وشدة عطفه وثقته ببلوتينوس، مما شجع بعض الطموحات التي لا يستطيع أي إنسان مقاومتها. ويذكر ديو أن بعض أعضاء مجلس الشيوخ المعارضين أُخرجوا من المجلس قبل أن يفضي الإمبراطور بتفاصيل المؤامرة للمجلس.

لم يكن موت بلوتينوس هو نهاية المطاف فقد كان من الثابت أنه لم يعمل دون شركاء في الجريمة. لذلك بدأ الإمبراطور يتتبع الخيوط التي أشار إليها أخوه الميت، وفي حركة التطهير التي تلت طرد كثيراً من الموظفين الكبار في الدولة وأعدم قليلاً منهم، فقد ذكر (ديو) أن أحد موظفي الدولة قال إنه رأى أحد أعضاء مجلس الشيوخ الصلع يزحف إلى الداخل. عندها بدأت الشبهات تتجه نحو كل رجل أصلع في مجلس الشيوخ وقد بدا القلق على الجميع ما عدا أولئك الذين لهم شعور طويلة، ويصف ديو كيف كان الشيوخ يختلسون النظر بعضهم إلى بعض وكل واحد منهم يقارن شعره بشعر جاره.

ثم يضيف ديو قائلاً: «لا أستطيع أن أنكر ما فعلته أنا بنفسي مع أن ذلك كان أمراً مضحكاً. فقد كنت قلقاً جداً لدرجة أنني رفعت يدي إلى رأسي لأتحسس الشعر هناك وقد فعل الكثيرون كما فعلت».

انتشر القلق بين أولئك الذين لم يكونوا من الموظفين الكبار وذلك عندما قرأ الكاتب عبارة تقول إن عضو مجلس الشيوخ الأصلع كان يرتدي رداء ذا حاشية أرجوانية وهذه كانت شارة القضاة في روما، وقد اتجهت العيون نحو أحد القضاة المدعو بيبيوس مارسيلينوس Bebius Maecellinus وكان من صغار القضاة وكان أصلع أيضاً، عندها وقف مارسيللوس وطلب أن يظهر المخبر أمامهم ويتعرف على الشخص إذا استطاع، عندها جلب المخبر ووقف الرجل وهو ينظر إلى الشيوخ ولم يستطع أن يميز أي واحد منهم ولكن يظهر أن واحداً من الشيوخ غمزه بشكل خفي ووجهه إلى مارسيلينوس فأشار إليه وحلف أنه هو.

عندها اعتقل مارسيلينوس حالاً وأُخرج من المجلس وكان أطفاله الأربعة ينتظرونه في الفورم، وعندما رأوا والدهم معتقلاً تحققت مخاوفهم وحالما ودعهم قال إن ما يحزنه هو تركهم أحياء تحت رحمة أعدائهم، وبعدها قطع رأسه قبل أن يعلم الإمبراطور شيئاً عما حدث.

وقد ظهر أن الإمبراطور قد صدم بمؤامرة بلوتينوس فضعفت معاييره للعدالة وهكذا انتهز ذوو النوايا السيئة والشر المبيت الفرصة والفوضى التي حدثت، لكن عاد الإمبراطور وقبض على ناصية الأمور وعمل الكثير لإرجاع النظام والثقة، وذلك بعد تعيين بابنيان Papinian رجل القانون الضليع بدلاً من بلوتينوس كعريف للحرس البريتوري، وقد كان غرض الإمبراطور كف يد العسكريين عن قيادة الحرس البريتوري، فإن تعيين عريف مدني سوف يقلل من إمكانية أن يصبح العريف منافساً للإمبراطور. ولم يكن هذا الاختيار لإنقاص قيمة الوظيفة بل لتقليص ظِلِّ نفوذها لاسيما إذا أنيطت بمحام أو رجل سياسي. والحقيقة

أن الطريقة التي نظم بها بابنيان Papinian السياسة الإمبراطورية ووجهها بها من إشاعة الأمانة والكفاءة في الإدارة والتفسير المتنور للقانون جُعِلَتْ مثالاً استفادت منه تلك الأسرة طوال مدة حكمها وقد أثبتت جوليا صديقته وقريبته أنها تلميذة نجيبة قادرة عندما استلمت الحكم في المستقبل وطبقت مبادئه نفسها.

أما الآن فقد وجهت كل انتباهها لولديها اللذين سببا لها بسلوكهما عند بلوغهما مبلغ الرجال كثيراً من القلق والمتاعب. هذا وقد أصبح أنطونيوس الآن متحرراً من تلك الكراهية لزوجته والتي أجبرته على التصاقه بأمه للحصول على النصيحة والإرشاد، فها هو الآن يطلق زوجته بلوتيللا Plautilla ويحصل على أمر بنفيها إلى جزيرة من مجموعة جزر ليباري Lipari مع أخيها، وهكذا تخلص من الزوجة ومن العم، فتفرغ لمباهج الحياة التي يلزمها سنه الفتي وطيش الشباب مع رفعة الرتبة والمقام والثروة. وقد كانت إحدى رفيقاته في هذه الفترة ابنة خالته سهيمة Sahaemias التي بقيت في روما بعد ذهاب زوجها فاريوس Varius ليعمل في بريطانيا كموظف إمبراطوري، ويبدو أن علاقات حميمة قد توطدت بينهما منذ أيام حفلات الألعاب، مما سبب تلك الفضيحة بالنسبة لصحة أبوة ذلك الطفل الذي ولدته في العام نفسه. وقد رجع فاريوس إلى روما بعد أن رقي إلى رتبة تخوله دخول مجلس الشيوخ وأصبح مسؤولاً عن الخزينة الإمبراطورية. ولكنه كان زوجاً متسامحاً لا يهمه سوى نجاحه في وظائفه، فلم يغضب لسلوك زوجته وصداقتها لوريث الإمبراطورية. ولم تكن هذه هي المرأة الوحيدة في حياة أنطونيوس، فقد أصبحت غزواته الغرامية الصاخبة حديث أهل روما جميعهم، ولم تكن إشارات عجزه الجنسي قد ظهرت بعد.

لقد تألمت جوليا من مسلك ابنها هذا أكثر من ألمها لمشاجراته مع أخيه جيتا، فقد ساءت العلاقات بين الأخوين بمرور السنين وكان لكل منهما جماعة من الرفقاء الأشرار الانتهازيين الذين لم يستطع حتى الإمبراطور إبعادهم عنهما، ولقد كانت تلك المنافسة تظهر في مسابقات العربات العامة، حيث كان الأخوان يظهران في أفخم الأزياء يحرض كل منهما فريقه على النصر. وفي إحدى المناسبات كُسِرَت رجل أنطونيوس في السباق، وعندما سمع سبتموس بالحادث قرر التدخل، وقد كان الإمبراطور من الأشخاص القلائل الذين كان أنطونيوس يخافهم ويحترمهم. زار الإمبراطور ابنه المريض وشرح له الخطر الكامن وراء تلك المنافسة على الإمبراطورية من نشوب حرب أهلية كالتي حدثت قبل عشر سنوات، والتي كبدت الإمبراطورية الكثير. أصغى أنطونيوس لوالده بانتباه وهو في الفراش ولكن عندما شفيت رجله عاد إلى سابق عهده من النشاطات والمنافسة مع أخيه. وقد أظهر سبتموس ضعفاً أمام ابنه لم يكن يليق به وهو صاحب مبدأ القوة والحزم. فقد كان هو نفسه يلوم الإمبراطور ماركوس أوريليوس لمعاملته اللينة وعطفه الزائد على ولده، الأمر الذي ترك الإمبراطورية تحت رحمة وريث لا خير فيه، وطالما هدد بحرمان أنطونيوس من اللقب الإمبراطوري، ولكنه لم

ينفذ هذا التهديد وهذه نقطة تظهر أحد عيوب سبتموس إذ إنه أصر على إضافة اسم ابنه لاسمه في جميع المناسبات لكي يؤكد استمرار الأسرة في الحكم.

لقد تمتعت الإمبراطورية بعهد من السلم والاستقرار بعد إخماد حركة بلوتينوس ومؤيديه، اللهم إلا تلك الحركة التي قام بها أحد قطاع الطرق في شمال إيطاليا والذي جمع حوله عصابة تتألف من ستمئة رجل تقريباً كانوا يسطون على المسافرين ويأخذون أموالهم ومقتنياتهم بالقوة، وهذا دليل على الفقر الذي أصيب به الناس بسبب الحرب الأهلية ولكن تلك الحركة كانت محصورة في بقعة صغيرة وقضي عليها بسرعة أما في بقية الإمبراطورية فقد ساد الاستقرار.

كان سبتموس يعتبر الأباطرة الأنطونيين العظام مثلاً أعلى له. وقد حاز على رضا الجميع لأن أعماله كانت تخالف أعمال وفظائع كومودوس وهو يستحق الاحترام أيضاً لاختياره بابنيان Papinian لجمع القوانين الرومانية واتباعه نصائح هذا الرجل على هذا الصعيد. فالطفل الذي كان يحب تمثيل دور القاضي في ألعابه، قد نما ليصبح قادراً على إصدار الحكم على أي شخص في الإمبراطورية ولكنه كان يملك عقلاً راجحاً بحيث لم يستسلم لإغراء السلطة. فهنالك ملاحظة شهيرة كتبها تعليقاً على ذلك المبدأ الذي يقول إن الإمبراطور فوق القانون تنص على أنه «مع أن الإمبراطور غير ملزم بالقوانين، إلا أنه لا يعيش إلا بواسطة القوانين».

ويقدم لنا ديو وصفاً لحياته اليومية كشاهد عيان فيقول «لقد كان ينهض عند الفجر أو أبكر من ذلك وبعدها يسير على القدمين مع أحد مرافقيه ويتحدث معه عن بعض الشؤون في الدولة، وبعد ذلك كان يجلس في المحكمة لفض الخصومات وكانت طريقته في المحاكمة محبوبة ولطيفة، فقد كان يسمح للمتقاضين بالوقت الكافي للكلام وبالحرية لإبداء الرأي. ويظل في سماع القضايا حتى الظهر وبعدها يركب حصانه ويسير راكباً بعض الوقت وبعد ذلك يقوم بالاستحمام يتبعه ببعض التمارين الرياضية، ثم يتناول غداء دسماً إما لوحده أو بصحبة أبنائه، وبعدها ينام نوم القيلولة، ثم يذهب لاستئناف أعماله ويخطو ذهاباً وإياباً وهو يناقش الأعمال ويتكلم اللاتينية واليونانية، وكان من النادر أن يدعو ضيفاً لتناول الطعام بل كانت الولائم الفاخرة تحضر في مناسبات لا يمكن تجنبها.

وبعد أن تقدمت به السن وضعفت صحته أصبح يحب الانسحاب إلى أملاكه على شاطئ كامبانيا Campania قرب نابولي، وكان يأخذ أسرته معه: جوليا وأبناؤها، وهو يأمل أن يلهي أبناءه عن الخصومات والمنافسات التي كانا يمارسانها في روما. ولم يكن كسولاً في الريف، فقد كان يستأنف نشاطه هناك في النظر في الخصومات والقضاء كعادته في روما.

ولكن أخباراً سيئة من بريطانيا عطلت مزاجه، إذ عندما سحب ألبينوس الجنود من بريطانيا ترك تلك البلاد تحت رحمة الكاليدونيين فهاجموا السور وتغلبوا على الحامية الرومانية القليلة العدد وعاثوا في الأرض فساداً، وقد كان الجيش

الروماني في بريطانيا دون المستوى الطبيعي للقوة فقد حاول الحاكم هناك شراء حياد الغزاة بالمال، ولكنهم نكثوا بعهدهم وهكذا أرسل خليفته نداء إلى روما يطلب النجدة لإعادة النظام وإلا فعلى الإمبراطور أن يحضر بنفسه ويتدبر الأمر.

لا نعلم لماذا أجل سبتموس قضية إحلال السلم في بريطانيا طويلاً، فقد كان اهتمامه الأول بالولايات الغنية في الشرق، فقد عمل على طرد البارسيين نهائياً من حوض نهر دجلة وأنهى كل ذلك قرابة عام 201 عندما سحب جيوشه من الشرق. وكان بإمكانه إرسال جيش لبريطانيا في ذلك الوقت لو رغب في ذلك، إذ لم يكن ليجهل الأضرار التي ستحل بالإمبراطورية من جراء هذا التأخير. فبالإضافة إلى تقارير الحاكم كان يعتمد على تقارير فاريوس Varius الذي كان قد أرسله إلى هناك وقد أنذره فاريوس هذا أن من الخطر وضع قوة كبيرة تحت تصرف الحاكم فهنالك ألبينوس الذي حاول تنصيب نفسه إمبراطوراً لمجرد وجود قوة كبيرة تحت تصرفه.

وهكذا قرر سبتموس قيادة الجيش بنفسه على أن يوكل أمر قيادة قوة كبيرة للحكام في بريطانيا وكانت حالته الصحية سيئة نتيجة مرض النقرس ولكنه لم يكن الرجل الذي يوفر قوته ويضن بها عند اللزوم. وكان يأمل تجديد شبابه وقوته في هذه الحملة. وقد أخذ ولديه معه ليعلمهما عملياً كيف يمكنهما التغلب على خصومتهما والاندماج في الخدمة العامة. ترك روما في عام 208 بعد أن أخذ جوليا وبابنيان وولديه معه وقد حملوه على حمالة، ولكن روحه المعنوية كانت طاغية كالعادة وصل شاطئ غاله الشمالي قبل وصول الأسطول لنقله إلى بريطانيا. ولما كان شديد الشوق للمسير فقد ركب قارباً ودخل بريطانيا قبل وصول الأسطول. وحالما سمع الكاليدونيون عن وصول الإمبراطور شخصياً انتابهم الهلع فأرسلوا رسلاً إلى الجنوب لمقابلته والتماس الصلح.

رفض الإمبراطور التعامل مع هؤلاء الكاليدونين وقرر إرسال حملة تأديبية لغزوهم في عقر دارهم. فلقد عمل هذا الإمبراطور على تأمين الحدود الشرقية للإمبراطورية باستيلائه على منطقة نهر دجلة، والآن أصبح يأمل بتأمين الحدود الشمالية الغربية باستيلائه وتأديبه المتمردين هناك. وقد قضى بقية العام وقسماً من الأشهر الأولى للعام التالي في مركز قيادته وهي لوندينيوم (لندن) التي كانت المكان المفضل لإقامته والتي جعلها مركزاً لإدارة بريطانيا. وقد عمل على تنظيم شؤون الولاية من هناك واستعد للحملة القادمة. وفي أثناء الشتاء أنعم على جيتا ابنه بلقب أغسطس وهو اللقب نفسه الذي كان يحمله أنطونيوس، وبذلك أصبح الأخوان يحملان الرتبة نفسها وللاحتفال بهذه المناسبة سك ميدالية تحمل شعار «اتفاق الأغسطسين» وهذا دليل على رغبته المحمومة في ذلك. ولكن أنطونيوس نظر إلى ترقية أخيه هذه بعين الغيرة والحسد. ولكنه عزى نفسه وشغل نفسه بالتماس رضا الجنود وذلك برشوتهم والتملق لهم واستعمال سحره لكسب الأصدقاء والأتباع وكان له ذوق في اختيار الملابس، فكان يلبس عباءة من طراز غالي (من طراز أهل

غاله) ويعرف باللغة الغالية باسم كاراكال Caracal وهذا أكسبه لقب كاراكلا وقد قبل هذا اللقب واعتبره علامة على شعبيته وأخذ الجنود يحبونه باسم كاراكلا.

وفي عام 209 شرع سبتموس في المسير شمالاً لمقابلة العدو، مصطحباً معه أنطونيوس وترك جيتا في الجنوب للإشراف على الإدارة والحكم ومعه مجلس من الرجال الأكفاء لنصيحته. وكان جتيا في العشرين من العمر وكان والده يثق به أكثر من ثقته بأخيه لذلك اختاره للحكم في غيابه. وبقيت جوليا مع ولدها جيتا بعض الوقت، ثم التحقت بزوجها بعد أن أتتها أخبار نجاح حملته فيما وراء الأسوار.

وتلمس نفوذ جوليا في تصريف شؤون الحكم عندما كان جيتا مسؤولاً عن الإدارة في حادث استشهاد القديس ألبان Alban وهو جندي روماني تحول إلى المسيحية، ويشتهر أنه أول شهيد مسيحي في بريطانيا، وتقول القصة إنه كان من أهالي Verulanium (وهي مدينة سانت ألبان الحديثة التي سميت باسمه) وإنه رجع إلى تلك المدينة بعد إتمام خدمته العسكرية حيث أمسك به وعذب ثم أعدم. ولا يعرف تاريخ إعدامه بالضبط ولكن من المحتمل أن ذلك قد حدث في فترة اضطهاد الدين المسيحي في أوائل القرن الثالث الميلادي وأن الحوادث التي اكتنفت حياة هذا القديس تتناسب لتكون في عصر سبتموس سيفيروس، مع أن سبتموس لم يشترك في اضطهاد المسيحيين إذ حدثت بعض المناسبات حيث قام بعض الحكام بتعذيب المسيحيين دون علم الإمبراطور.

ومن الواضح من مجرى الحوادث أن القديس ألبان كان قد استشهد قبل وصول الإمبراطور وأبنائه إلى بريطانيا، وكان منفذ الإعدام حاكم بريطانيا في ذلك الوقت أو أحد موظفيه. وقد أثر هذا الإعدام في جيتا الذي كان يسمى القيصر في غياب والده عند سماع نبا العقاب الذي حل بالقديس ألبان، وقد أعلن أنه دون اللجوء لاستشارة الأباطرة، قد أصدر الأمر على مسؤوليته لإيقاف عمليات التعذيب إذ إن السعي للقضاء على الديانة المسيحية بهذا الشكل سوف يكون سبباً بانتشارها ونموها، وكان جيتا يعني بكلمة الأباطرة أباه وأخاه اللذان كانا يحاربان في الشمال. فقد كان هو وأمه يشعران بالحرية للعمل طبقاً لقناعاتهما الدينية.

وفي أثناء ذلك تقدم سبتموس على رأس جيشه إلى السور وقد ساق المتمردين الذين هربوا أمامه. ويصف المؤرخون هؤلاء باسم الكاليدونيين أو شعب البكتس Picts وهي كلمة لاتينية تعني الشعب الملوَّن. وهذا الوصف يمكن تطبيقه على البريطانيين Britons جنوب السور أيضاً. وكانت عادة تلوين الوجه للزينة شائعة في تلك الأزمنة في بريطانيا واعتبرت إحدى الطقوس المقدسة مثل الأعياد، ويقول بليني إن الفتيات والنساء الصغيرات كن يرقصن عاريات وأجسامهن مدهونة باللون الأزرق تكريماً لآلهتهن الوطنية، ولم يكن هنالك من فرق بين البريطانيين شمال السور وجنوبه إذ إن السور لم يكن حداً طبيعياً بل حداً اصطناعياً أنشئ لتحديد الأراضي التابعة لروما بالذات. فالغزاة الذين اقتحموا

الحدود بعد انسحاب ألبيناس لم يكونوا أجانب يعلنون الحرب، بل كانوا من البريطانيين الذين يطمعون بالتمتع بما كان ينعم بهم أقاربهم في الجنوب من ضروب المدنية والحضارة.

بدأ سبتموس في ترميم السور وقد تنبأ أن هذا السور سوف يكون ضرورياً في المستقبل ولكن كان غرضه من اجتياز السور إخضاع القبائل المقابلة ليخلدوا للسكينة وليحل السلم ولإعادة تنظيم السكان جنوب السور. وبينما كان أسطوله يسير بمحاذاته في البحر تقدم سبتموس على طول السواحل الشرقية وبنى الجسور لعبور نهر تويد Tweed ونهر فورث Forth وبنى قاعدة بحرية في كرامونـد Caramond على جزيرة فيرث أوف فورث Firth Of Fortg متاخماً جبال جرامبيان Grampians حتى وصوله إلى وادي نهر دي Dee. وبعدها استمر شمالاً إلى مقاطعة بانفشير Bamfahire وكل ما يقوله ديو إن سبتموس وصل إلى أقصى أجزاء الجزيرة. ولاحظ كيف أن طول النهار والليل يختلف في روما في مثل ذلك الفصل من فصول السنة عن إيطاليا، وقد توغل في أراض لم يدخلها أي قائد روماني قبله ما عدا اجريكولا Agricola الذي وصف غزوته التي حدثت قبل قرابة مئة عام المؤرخ تاسيتوس Tacitus.

كانت تلك المناطق تصلح لتحرك رجال العصابات مما ينهك قوة أي جيش نظامي مثقل بالحمولة، وقد نزلت خسائر فادحة بالجيش الروماني حيث كان عدوه مراوغاً لا تصل إليه ضربات الجنود النظاميين المحكمة، وكان الكاليدونيون يتفوقون على الجيش الغازي لأنهم كانوا يقاتلون في بلادهم المألوفة لديهم، وكانوا يحسنون الخدع الحربية التي كانت تنزل الفوضى واليأس في قلوب أعدائهم الرومان، وكانت إحدى تلك الخدع أن يرسلوا قطعاناً من الماشية لترعى أمام الجيش الروماني الذي كان يتوق لأكل اللحم الطازج، وهكذا كانوا يرسلون شراذم منهم للإحاطة بالقطيع والإمساك به، وعندها كان القطيع يسرع السير إلى حظائره. وعندما كان الرومان يلاحقونه كانوا يقعون في إحدى المستنقعات حيث تنتظرهم رماح الكمين المعد لهذا الغرض. وكانت المستنقعات كثيرة في تلك الجهات ويقول دوي إن الكليدونيين كانوا يغمسون أنفسهم في الماء مدة عدة أيام وليس هنالك سوى رؤوسهم تظهر فوق سطح الماء.

وعلى الرغم من الصعوبات التي تعرض لها الرومان والأخطار التي تحملوها، إلا أنهم أصيبوا بخسائر فادحة في الأرواح بحيث لم ينسوا تلك الحملة أبداً ولكن بعض رؤساء القبائل قدموا فروض الطاعة والولاء وتنازلوا عن أملاكهم، وقد حدثت حادثة في تلك الأثناء تكشف المتاعب التي كانت تقف في سبيل مساعي سبتموس للنصر. فقد أرسل الكاليدونيون استرحاماً يطلبون به عقد اجتماع للمفاوضة في شروط الصلح والهدنة، وقد بنيت منصة خشنة لهذا الغرض في أحد الحقول. وهنا تقدم سبتموس ومعه ابنه أنطونيوس وبقية قواد الجيش ولكن حدثت بعض الفوضى عند اختلاط القوم. وهنا عمد أنطونيوس إلى كبح حصانه

فجأة، بحيث أخذ الذين كانوا خلفه بمفاجأة مذهلة. إذ بينما كانوا يتدافعون في حالة من الفوضى وعدم النظام استل أنطونيوس سيفه وحاول طعن والده من الخلف.

وكانت فكرته إلصاق تهمة قتل والده بالكاليدونيين وخيانتهم والاحتجاج أنه رفع سيفه دفاعاً عن والده وليس قتله. ولكن عمله كان مفضوحاً فقد لاحظه أحد الضباط الرومان وهجم صارخاً ثم تقدم بسرعة وأمسكه من ذراعه، وهكذا نجا الإمبراطور من الموت ولكنه عندما التفت ليرى ما الخبر أغمد انطونيوس سيفه بتثاقل. ولكن الإمبراطور فهم كل شيء حصل. لم يتكلم الإمبراطور أي كلمة بل استمر في مسيرته إلى المنصة ثم ترجل وانضم إلى الكاليدونيين الذين كانوا بانتظاره. وعند انتهاء المفاوضات رجع الإمبراطور إلى المعسكر الروماني وبعدها دعا أنطونيوس الذي قدم ليرى بانيان حاضراً أيضاً ورأى سيفاً ملقى على الطاولة. أشار والده للسيف قائلاً: «إذا كنت تريد قتلي تستطيع أن تفعل ذلك هنا دون أن تمرغ اسم روما في الوحل أمام هؤلاء البرابرة».

وحالما وقف أنطونيوس منكمشاً أضاف والده قائلاً: هيا، وافعل فعلتك لأن والدك الضعيف والمسن، لا يستطيع مقاومتك. وإذ كنت تخشى تنفيذ فعلتك بنفسك فها هو بابنيان Papinian عريف الحرس البريتوري سوف يطيع أوامرك بل هو مجبر على الطاعة. فأنت سوف تصبح الإمبراطور عند إتمام هذا العمل.

كان أنطونيوس يعلم أن آخر رجل يمكن أن ينفذ عمله هو بابنيان صديق والده الوفي المخلص والمتفاني في خدمته.

لقد كان هذا التقريع آخر ما في الأمر بالنسبة لهذه القضية، فلم يوقع الأب أي قصاص في ولده لقاء هذه البداية في الجريمة، بل ظل أنطونيوس يمارس صلاحياته واستأنف نشاطه. وإن تفسير تغاضي سبتموس عن هذه الإهانة كونه كان متحمساً لإنشاء أسرة إمبراطورية تنافس أسرة أغسطس. وعلى الرغم من كل الإحباطات إلا أنه كان مصراً أن أنطونيوس سوف يعود إلى صوابه في يوم من الأيام ويبدل من سلوكه، فلم يكن راغباً في إعدام ابنه الذي كان يلقي عليه الآمال العظام. وعندما أعلن عن انتصاراته في بريطانيا في طول الإمبراطورية وعرضها، كان حريصاً على ذكر اسم ولديه واشتراكهما في هذا النصر، وقد أصر على جعل جيتا ذا حصة متساوية في القوة والنفوذ في الإمبراطورية، ولكن هذا الإعلان لشد ما أغاظ أنطونيوس الذي كان يكره أخاه، ولكنه لم يحاول إعادة محاولته السابقة للاعتداء على حياة والده. فقد اعتبر ذلك الحادث إحدى حماقاته المتأثرة بتفكيره بنوع من الظلم يحيق به، وكان شاكراً لوالده وللظروف التي أوقفته عند حده في الوقت المناسب. وها هو سبتموس يجني ثمرة تنظيمه للجيش الذي أصبح جنوده يحترمون ويحبون قائدهم ولم يكونوا ليرتاحوا لو قتل قائدهم. وهكذا انتقل أنطونيوس من اجتراح جرائم القتل إلى وسائل أخف لتنفيذ مآربه. فهو لا يستطيع، مهما فعل، أن يحل محل والده في اكتساب قلوب وعطف جنوده، ولكنه يستطيع أن ينشئ له حزباً من بينهم يؤيده ضد أخيه في المستقبل عندما تحين

الفرصة. وهكذا أخذ يوزع الرشاوى والهدايا لأفراد الجيش من الكبير إلى الصغير وأخذ يشجعهم برفع الكلفة بينه وبينهم وينادوه باسم كاراكلا، وقد ساعده على النجاح في مسعاه هذا كونه جندياً متمرساً مع الكفاءة والحماس لخوض العمليات الحربية.

وحالما مرت الشهور بدا له أنه لن ينتظر طويلاً حتى يرث عرش الإمبراطورية، فقد كانت صحة الإمبراطور تسوء كل يوم عن اليوم السابق رغم مجهوداته للتغلب على ضعفه، وزادت آلامه وتفاقمت بما كان يشعر به من القلق والإرهاق. فقد كانوا يحملونه في نقالته إلى أعالي الجبال ثم ينزلون به إلى الوديان وفوق المستنقعات والجداول وعبر الغابات المتشابكة وكلها أوضاع سببت له التعب الذي يفوق تعب الذين يحملونه. شعر في الخريف بالراحة قليلاً، لأن الخريف وضع حداً للأعمال القتالية. فعاد إلى جنوب السور لقضاء فصل الشتاء.

انضمت جوليا إليه في هذا الوقت للعناية به. وتُروَى قصة حدثت عندما أتى أحد زعماء الكاليدونيين لإبرام معاهدة وكانت زوجته معه. وقد تركت هي وجوليا للحديث فسألتها جوليا عن العادات الاجتماعية في بلادها وهل من الصحيح أن الاختلاط الجنسي مشاع للجميع وأن الأطفال ينتمون للقبيلة وليس لآبائهم وأمهاتهم، فوافقت المرأة على ذلك وقالت: «إننا نسمح بأنفسنا ونهب أنفسنا لأفضل الرجال دون عيب أو خجل، بينما أنتن في روما تتسللن للاختلاط بأسوأ الرجال لممارسة أعمال الزنا والفسق» لقد أعجب جوليا هذا الجواب إذ إنها لم تكن رومانية أصلاً. وكررت ذكر هذا الجواب لأصدقائها وصديقاتها وحالما تناقلت الألسن هذه القصة وصلت إلى ديو الذي سجلها في تاريخه.

لقد تعرف الجنود الرومانيون المتمركزون فيما وراء السور على العادات الحربية للشعب الذي يعيش في الجانب الآخر من السور. فلقد أثمرت خطة سبتموس في هذا المجال في بريطانيا كما أثمرت في باقي أنحاء الإمبراطورية، فقد أصدر مرسوماً ألغى فيه القانون الذي منع تبادل الزواج من الفتيات الوطنيات وهكذا هدم ذلك الحاجز الاجتماعي بين سكان الحاميات وجيرانهم، وشجعت المصاهرة ولم تبق تلك الغربة والوحشة التي كانت تسبب الخوف لسبتموس وجوليا حالما كانا ينظران عن طريق الدانوب في مدينة كارنونتوم. وهكذا بدأ الجنود الرومان يُزَفُّون إلى الفتيات غير الرومانيات ونشأ جيل مهجن مختلط الأصل ولم يعد السور حاجزاً عسكرياً، بل أصبح موقعاً لحماية البيوت والأسر وزوجات وأطفال أولئك الجنود الذين كانوا يحرسون السور.

تحسنت صحة الإمبراطور بعد الاستراحة والعناية وسرعان ما عاد له نشاطه وأخذ يشرف على الأعمال في إعادة بناء التحصينات في السور. وفوق ذلك فقد ظل على اتصال دائم بالبريد ليعرف أخبار الحكومة المركزية في روما مبدياً رأيه وتقريره في أدق القضايا التي كانت تحدث في أقصى بقعة من بقاع تلك الإمبراطورية الواسعة. هذا وقد قرر استئناف حملته ضد الكاليدونيين في الربيع لإتمام ضم الأراضي التي غزاها، ولكن القادة الآخرين الذين لم ينسوا الصعوبات

التي واجهوها في حملتهم لم يكونوا متحمسين لتلك الفكرة، ولكي يثنوه عن عزمه أخذوا يوجهون انتباهه إلى بعض الإشارات ذات الطالع السيئ والتي حدث أشهرها في لوجافاليوم Luguvallium وهي كارليل الحديثة. فقد أقيم هنالك احتفال يقتضي تقديم قربان للآلهة ووافق الإمبراطور على تقديم ذلك القربان بنفسه، واتفق مع أحد المتعهدين المحليين لجلب الحيوانات المناسبة للقرابين. وكان هذا المتعهد يجهل العادات الرومانية فاختار حيوانات ذات لون أسود. وعندما اقترب سبتموس من المذبح ورأى تلك الحيوانات السوداء أمامه صاح بفزع. فاللون الأسود كان علامة على سوء الطالع في الخرافات الرومانية. وعندها رفض إجراء ذبح القرابين ورجع غاضباً إلى بيته.

وأثناء رجوعه إلى بيته سمع جلبة خلفه، فنظر حوله، فإذا بالعجول السوداء والأمعز السود تجري خلفه في موكب من الثغاء، وذلك لأن أبواب الحظيرة تركت مفتوحة عن غير قصد الأمر الذي سبب له منتهى الخوف والتشاؤم كما لو أن آلهات الغضب قد حُشِدَت في هذه الحيوانات.

ولكن عناده كان أقوى من شعوره بالتشاؤم ولهذا رفض أي تغيير في خطته. وعندما جاء الربيع والطقس الجيد قاد جنوده شمالاً للمرة الثانية لمهاجمة الكاليدونيين في الجبال، وقد سار أولاً على قدميه. وعندما أُنهِكَت قوته ركب حصاناً، ولكن سرعان ما شعر بالتعب فحمل على محفة. وأخيراً ساءت حالته وأصبح في خطر وهكذا اضطر للرجوع فوضعوه في سفينة حملته بحراً إلى ايبوراكوم Eboracum وهي يورك الحديثة وكانت المدينة الوحيدة التي يستطيع أن يجد فيها معالجة طبية مناسبة.

حاول سبتموس منذ وصوله إلى بريطانيا إعادة بناء وتوسيع مركز القيادة في ايبوراكوم Eboracum (يورك) وقد حول هذا المبنى إلى قصر والتجأ إلى هذا القصر طوال بقية العام مع جوليا وأنطونيوس، ثم أتى جيتا من لندن للالتحاق بهم وفيه أعلن عن رغبته في أن يحكم ابناه بعد موته بشكل إمبراطورين بسلطة مشتركة. وقد أخذت حالته الصحية تسوء شهراً بعد شهر، رغم إشراف أفضل الأطباء في الولاية على العناية به ودعي أطباء آخرون من بلاد غاله ولكن لم تنفع جميع مهاراتهم. وكل ما درسوه عن غالين لم تُجْدِ فتيلاً، وقد سرت الإشاعات تقول أن أنطونيوس كان هو الذي تولى دفع استحقاقاتهم من الأموال والذي كان يهمه فشلهم أكثر مما يهمه نجاحهم.

وفي السنة التالية قطع الأمل تقريباً ولكن الإمبراطور ظل حياً لمدة شهر آخر وبعدها استلقى على فراش الموت وولداه واقفان بجانبه، وقد سجلت آخر كلمات له إذ قال: «كونا على وفاق وسلام، عليكما الاهتمام بشؤون الجنود والعساكر ولا تهتما بأقوال الآخرين».

وبعدها أسلم الروح في 4 شباط عام 211م.